مازق الهوية بين الخطاب الديني والعولمة
في فكر طه عبد الرحمن

The problem of identity between religious discourse and globalization
in the thought of Taha Abdurrahmane

[1] ط.د. شويني علي، جامعة وهران 2، (الجزائر) chouiniali21061987@gmail.com

[2] ط.د. بدة فوزية، جامعة 8 ماي 1945، قالمة،(الجزائر) beddafouzia@gmail.com

[3] د. زموري العياشي جامعة 08 ماي 1945،قالمة،(الجزائر) zemmouri.layachi@univ-guelma.dz

تاريخ الاستقبال: 2019/12/20؛ تاريخ القبول: 2021/01/20؛ تاريخ النشر: 2021/06/30

ملخص: تهدف م يعتبر سؤال الهوية ايوم من بين القضايا الاساسية التي يتعرض لها الانسان المعاصر، فبات من بين المشكلات التي لابد من البحث لها عن مرجع تستند اليه، اي ان الانسان في الوقت الحاضر بحاجة الى تحديد هويته خاصة في ظل ما يعرف بالعولمة التي قضت على كل الخصوصيات و أوقعت بذلك الانسان في مازق الهوية، فللخروج من هذه الازمة (ازمة الهوية) ظهر العديد من الخطابات التي بالرغم من ان لها هدف واحد و هو ايجاد حل لهذه الازمة الا ان مقارباتها كانت تختلف من خطاب الى اخر ومن بين هذه الخطابات نجد الخطاب الديني الذي دافع على الدين واعتبره سبيل الى تحديد الهوية وبمثابة سبيل لوضع حد لازمة الهوية .

لقد تبنى العديد من الفلاسفة والمفكرين الخطاب الديني باعتباره مرجعية للهوية ومن بين هؤلاء نجد طه عبد الرحمن الذي اقام الهوية على اساس ديني، وذهب الى ضرورة التمييز بين الهوية الغربية والهوية الاسلامية فالأولى مبنية على اساس مادي اما الثانية نابعة من الدين الاسلامي و ذات مصدر روحاني، ولتجاوز هذه المأزق لابد من العودة الى الدين والتمسك به لان الحضارة الغربية دخلت هذه الازمة منذ ان فصلت الدين عن مجالات حياة الانسانية ومناداتها بالدنيوية التي لا يمكن ان تتحقق الا بالعلم والمادة فقدستهما على حساب الجانب الروحي للإنسان وهذا الامر يتجلى بشكل واضح في مبادئ الحداثة الغربية، فالإنسان فقد هويته عنما ابتعد عن دينه الذي يمثل لب هويته فلهذا لا يجب على الانسان المسلم ان يسير على نهج الانسان الغربي .

الكلمات المفتاحية :

الهوية، الخطاب الديني، العولمة، العلم، النزعة المادية، الهوية الاسلامية.

Abstract

Through The question of identity is one of the basic issues facing modern man. It becomes among the problems that : need a reference to rely on. In other words, today's human being needs to determine his/her identity, especially in the context of what is known as globalization that has eliminated all the peculiarities and characteristics, and thus implicated mankind in a problem of identity. To get out from this deadlock (the identity crisis), many kinds of discourses emerged; despite the fact that they all had the same goal: to find a solution to this crisis, but their approaches differed from one speech to another. Among these discourses is the religious discourse that defended religion and .considered it as a path towards identification and as a way to put an end to the crisis of identity

Many of the philosophers and thinkers adopted the religious discourse as a reference to identity. Among them is Taha Abdurrahmane, who says that identity should be established on a religious basis. He claims that there should be a distinction between Western identity and Islamic identity. The first is based on a materialistic basis whereas the second is inspired from Islam and has a spiritual source. In order to overcome this impasse, he thinks that we must return to religion and adhere to it; the Western civilization entered this crisis once religion was separated from the areas of human life and because of the appeals to secularism that can only be achieved by science and material, at the expense of the spiritual side of human beings. This is clearly seen in the principles of Western modernity. Man has lost his/her identity when s/he got away from his religion which represents the core of his/her identity. Therefore, a Muslim should not follow the same path that **the Western man took**.

Keywords:

Identity, religious discourse, globalization, science, materialism, Islamic identity,

I- تمهيد:

ان التطور العلمي والتكنولوجي الذي شهده الانسان منذ القرن العشرين اصبح يثير العديد من التساؤلات حول وضع الانسان، ضمن هذا السيل الجارف الذي تمخضت عنه الكثير من الازمات قد انتج ما يعرف اليوم، بالعولمة التي لا تعترف باي خصوصية والغت الحواجز الثقافية فبات الانسان المعاصر يعيش في صراع ذاتي كون أن مثل هذه الأخير تبعده عن الأصل، فلم يعد الانسان بمقدوره ان يتعرف على نفسه ففقد بذلك المرجعية واصبح يعيش في دوامة السؤال "الأنا"، فعلى اي اساس يحدد هويته او بتعبير اخر كيف احدد هويتي ؟ هل بالانتماء الى الوطن؟ أم بالإنتماء الديني؟ فلم يعد للحدود الجغرافية اي كلمة في ظل العولمة التي اسست لإمبراطورية عالمية الغت كل الثوابت التي كانت ترتكز عليها الهوية فلم يعد للانتماء الوطني والديني والعرقي والثقافي اي اهمية.

فالهوية التي اخذت تتشكل منذ القرن العشرين هي هوية رواد هذه الامبراطورية التي اصبحت تنظر نظرة احادية تذوب تحتها كل الهويات الاخرى من اجل احداث تنميط سياسي وثقافي واقتصادي واجتماعي واحد وفرضه على بقية المجتمعات الانسانية الاخرى، الا ان سؤال الهوية مثل" السمة والهاجس الدائم للشعوب الناهضة الجديدة التي لا تكتفي ان تعيش مجرد عيش في الزمان بل توجد الزمان، ولا توجد في الكينونة بل توجد الكينونة" فكانت معرفة الشعوب لذاتها ومقوماتها هي شرط في تحقيق تطورها واثبات وجودها، وبهذا فان العولمة قد اوقعت الدول التابعة في ازمة هوية، فاصبح الانسان يعيش نوع من الانفصام في هويته، واصبح يطرح عليه بشكل متسارع الالتحاق بصف العولمة خاصة وان هذه الاخيرة تحتوي على الكثير من الامور التي تتناقض والمجتمع الذي يعيش فيه الانسان مما جعله يعيش في حيرة بين ما هو مفروض عليه باعتبار ان العولمة اصبحت قدر محتوم لا يمكن التخلص منه وبين واقعه الذي يحكمه من جهة اخرى وهو الامر الذي دفع العديد من المفكرين خاصة في المجتمعات العربية باعتبار انها اكثر المجتمعات التي تواجه اليوم ازمة هوية ولقيت صعوبة كبيرة في تقبل نظام العولمة ومن بين المفكرين الذين كان لهم موقف من هذا الوضع نجد المفكر المغربي طه عبد الرحمان الذي شخص حالة الانسان المعاصر وحاول ان يجعل من الدين مرجعية للخروج من ازمة الهوية التي يعيشها هذا الانسان، لكن ما موقف طه عبد الرحمن من مسالة العولمة ؟ وكيف وظف الخطاب الديني كحل لأزمة الهوية ؟ وهل يمكن اعتبار الدين المحدد الوحيد للهوية ؟ وما مكانة الدين في ظل العولمة ؟

1. : الحداثة الغربية ومازق الهوية :

ان ظهور الحداثة في المجتمعات الغربية وما حققته من تطور على جميع المستويات شكل صدمة للمجتمعات العربية الاسلامية حيث" برز موضوع الهوية على وقع صدمة الحداثة والاستعمار في القرن التاسع عشر بما افرزته هذه الصدمة من اهتزاز في الوجود والوعي، ومن اختلال في المعاني والدلالات والقيم "وما شكلته الحداثة الغربية جعل الواقع العربي يعيش في صدمة بين ما هو موجود وبين مختلف التطلعات "فالحل الأجنبي ما هو إلا مجموعة من الحلول المستوردة جوهريا من التجربة الغربية الحديثة بكل أشكالها الفردية والشمولية العلمانية والإلحادية" يرجع طه عبد الرحمن ازمة الانسان العربي المعاصر الى الحداثة الغربية اي ان الفرد العربي قد تأثر بالحداثة الغربية وحاول تقليدها ومما جعله يبتعد عن ذاته "فأهل التقليد والإتباع استلذوا التفلسف والتفكير والعمل على طريقة غيرهم، قد اندفعوا إلى تقليد فلاسفة ومفكري الغرب واقتفوا آثارهم"

ذلك لان الحداثة الغربية انبنت على اسس تختلف عن المبادئ التي تتأسس عليها الهوية الاسلامية وتتمثل هذه المبادئ في مبدا العقلانية أو التجريدية الذي يعتبر من مقومات الحداثة الغربية إذ عده مبدأ يخالف مبدأ الإيمان بالرسالة ، لأن الإنسان من خلاله لا يتخذ سوى العقل كمرجعية لأحكامه، وهذا ما سبب الخلل لأن ما يقابل المسلم في حكمه إلى جانب العقل هو الوحي"فالمحدد الأساسي

للإنسان ليس العقل المجرد، وإنما الأخلاق فهي التي تميزه عن الحيوان الذي لا أخلاق له لعدم قدرته على إدراك القيم فهوية الإنسان هي أصلا هوية أخلاقية"

كما نجد ايضا "مبدأ الدنيوية" أو العلمانية، الذي يهمل فيه الحداثي اهتمامه بالآخرة، ويقصر كل اهتمامه بالدنيا وفي هذا يرد طه عبد الرحمن بقوله:" اهتمام الإنسان بالآخرة ليس خروجا عن الاهتمام بالدنيا، بل اهتمامه بالآخرة هو وسيلة للرجوع إلى الدنيا و الاهتمام بها بأفضل مما يهتم الإنسان لو أنه ترك الاهتمام بالآخرة"

وبهذا نجد ان الطابع المادي الذي اتسمت به الحداثة الغربية هو الذي شغل الفرد العربي وجعله يتأثر بها وعليه فقد انساق وراءها متناسيا بذلك لب وجوهر حضارته الاسلامية التي هي مرآة عاكسة لهويته فاصبح الانسان المسلم جراء هذا يتخبط في مخلفات الحداثة الغربية التي نسب نفسه اليها واعتبرها سبيل للخروج من الوضع القائم الذي يتميز بالتخلف نحو وضع افضل لكن هذا الانقياد يبدو له عقلاني لكن هو في حقيقته يفتقد للعقلانية، وبهذا يمكن القول انه اذا كانت الحداثة الغربية قد احدثت انقلاب في القيم والدلالات وانبنت على اساس مادي براغماتي فان طه عبد الرحمن يدعو الى حداثة اسلامية تقوم على اسس مغايرة للتي قامت عليها الحداثة الغربية فاذا كانت الحداثة الغربية قد اوقعت الانسان في ازمة هوية فان الحداثة الاسلامية كفيلة بإعادة الانسان الى هويته الحقة من خلال العودة الى الدين الاسلامي والى القيم الاخلاقية التي تتجلى فيها هوية الانسان وبالتالي يجب استبدال واقع الحداثة الغربية بروح الحداثة الاسلامية وتتمثل مبادئ روح الحداثة في مبدأ الرشد ومبدا النقد ومبدا الشمول .

مبدا الرشد يتطلب من صاحبه الانتقال من حالة القصور إلى حالة الرشد وهذا القصور هو ما نصطلح عليه بالتبعية أو الخضوع لغيرنا ، وهذه التبعية في أصلها تتخذ أشكالا ثلاث حسب رأي طه عبد الرحمن، فمنها التبعية الاتباعية وهي أن يسلم كل قاصر مهمة القيادة والتفكير والتحكيم في زمام الأمور للغير ويجعله خليفة عنه في كل الأمور، إضافة إلى ذلك التبعية الاستنساخية والتي هي محض تقليد لا غير، أو هي مجرد نسخ ونقل، حيث يأخذ هذا القاصر صورة ذلك الفكر– وبالأخص الفكر الحداثي الغربي الذي هو فكر جديد كما يتوهم القاصرون– بصورتها طبق الأصل عن أفكاره، ويطبقها بحذافيرها على واقعه دون تكلف أوتصنع، أما بالنسبة للتبعية الآلية والتي تكمن في تقليد مناهج تفكير الغير دون أن يلحظ ذلك أو يشعر بأنه مقلد بحيث يصبح لا يرى إلا تلك المناهج دون أن يتكلف في تغيير محتواها حسب واقعه، وللخروج من هذه التبعية وضع طه عبد الرحمن ركنين لابد من الاعتماد عليهما يتمثل الاول في ركن الاستقلال ويكون الاستقلال متحققا بفعل تخلي كل إنسان راشد عن كل وصاية وبالأخص الوصاية الفكرية، وأن يتسلم هو قيادة أفكاره ويتحرر من كل وصاية أو سلطة تقيده، لأن الإنسان المعاصر لن يعثر سواء في العالم العربي أو الغربي على "معنى لوجوده ولحركته في الكون إلا إذا خرج من تاريخ الإنسان وحضارته ومدنياته النسبية، ووعي حضوره في تاريخ الخلق الحقيقي، تاريخ الكينونة " لذا فإن ما تدعو له الحداثة الغربية هو استقلال مقلد، تجعل من الأخر هو البديل عني في كل شيء خاصة في التفكير، لهذا وجب تفادي هذا الاستقلال المقلد الذي يجعلنا تحت وصاية الأخر ودحض كل وصاية سواء كانت داخلية تتمثل في التفكير من طرف رجال الدين، او وصاية خارجية تتمثل في ان – يفكر الغرب بدلا عنا، لذا يجب ان يتجاوز الفرد العربي لفكرة الانفصال إلى الإبداع وذلك بالتطلع إلى ما يرغب أن يفكر فيه وفي ما يجب أن يفكر، بحيث يمكن تلمس الاستقلالية الفكرية والتي تجسد ذاتية الإنسان وبالأخص الفرد العربي حيث"تجعله إنسان راشد منطلق الحركة قوي الذات"،لأن هذه الاستقلالية تجعل الإنسان مستقلا ومسؤولا قاطعا كل فعل تحديثي عن كل وصاية خارجية، وليس استقلالا قاصرا يتبع خطى الآخرين.

اما ركن الابداع يقوم على ترك كل إبداع مقلد قاصدا الإبداع المبدع للأفكار والأقوال والأفعال، ولكن هذا لا يعني أن يبدع شيء جديدا على حساب التراث، و إنما وجب أن يبدع أو أن يخلق أفكارا كانت أو أفعال إلى غير ذلك من الأشياء وفق قيم

جديدة يبتدعها من عنده، أو أن يستوحيها من التراث، ولكن بشرط أن يعيد إبداعها وفق ما يقتضيه ذلك الإبداع مع حاضره لا مع حاضر غيره، كما أن الإبداع لا يكون بقطع الصلة بالتراث قطعا كليا وإنما يكون بتغاضيه عن ذلك الجزء منه الذي انقضى نفعه ويعيد إبداع جزئه النافع ويقطع صلته بالجزء الفاسد، لهذا وجب على كل مريد في الحداثة أن يتصدى للمغالاة في الإبداع المقلد الذي نجده في أغلب الحالات إبداع في الحاجيات المادية، ولكن الحداثة غير هذا فهي"أن تنشئ من عندك الجديد وتولده، وتأتي ما يندهش له غيرك ويتلقاه لا بعقله فقط، بل أيضا بوجدانه وهو يحمل إليه قيمة أو قيما جديدة، وهذا هو الإبداع الذي هو سر الحداثة"اما المبدأ الثاني فهو مبدا النقد الذي يقتضي ان ننتقل من حالة الاعتقاد إلى حالة الانتقاد والذي يقوم على رفض كل معتقد مسلم به دون أن يثبت صحته لأن الاعتقاد هو " نوع من التسليم بالشيء من غير وجود دليل عليه " على خلاف الاعتقاد الذي يقوم على التدليل – الدليل – الشيء حتى يحصل التسليم به، ومن أجل أن يتحقق هذا المبدأ نجده يقوم على ركنين أساسيين هما: ركن التعقيل أو العقلنة، و ركن التفصيل في الركن الاول يكون التعقيل من خلال تجاوز أو رفض تلك العقلانية المقلدة التي أسدلت ستارها على الواقع العربي من جراء الهيمنة المطلقة للتطبيق الحداثي الغربي لركن التعقيل أو العقلنة المحدودة والتي تجعل كل ظواهر العالم ومؤسسات المجتمع وسلوكيات الإنسان وموروثات التاريخ كلها خاضعة لمبادئ العقلانية والجعل من سلطة هذا العقل يبسط بفعل قداسته على كل شيء، بالإضافة إلى ذلك كله جعل من الإنسان المركز الأول أو السلطة السائدة على الطبيعة وهذا هو عين العقلنة الغربية التي جعلت الحداثة هي تلك العقلانية المقدسة بعد أن كانت الطبيعة هي السائدة والمسيطرة.

كما أن التعقيل المقلد كما يصطلح عليه طه عبد الرحمن، لم يكتفي بتعقيل الأشياء على جهة استخدامها التقني بدلا من العلمي، بمعنى أصبحت فيه "زمام المبادرة بيد التقنية لا بيد العلم، إذ أصبحت هي التي تخطط له استراتيجيته وتحدد له مساره " ولكن هذا التعقيل لن يكفي من أجل الوصول إلى الحداثة لأنه تحديث من حيث التقنية لذا وجب الأخذ بهذا التعقيل في تحقيق قيم ترتقي بالإنسان وترفع منه لأن التعقيل المبدع الذي ينبغي أن يمارسه الإنسان يطلب المعارف ويضيع الآلات على مقتضى القيم والإشارات المتغلغلة في الوجدان الإنساني، كما أن هذا التعقيل المبدع الذي تدعو له الحداثة الإسلامية وفق مبادئها لا يصارع الطبيعة ولا يتسلط عليها، وإنما يخاطبها، بل يوادُّها ويراحمها على عكس العقلانية المقلدة ولهذا يدعو طه عبد الرحمن الى التخلي عن التعقيل الحداثي الغربي الضيق وألا نعمل عليه لأنه تعقيل مقلد وضيق، على عكس التعقيل الحداثي للتطبيق الإسلامي الذي نجده عقل موسع لا ينحصر في العقل الأداتي، اما التفصيل فانه يقتضي رفض كل تفصيل مقلد منتقلا إلى التفصيل المبدع ، حيث نجد كل حداثي سواء الغربي أو الحداثي العربي غارق في التقليد من حيث التفصيل، لاتخاذهم فعل الفصل في كل المجالات وعلى كل المستويات لأن التفصيل حسب طه هو"نقل الشيء من صفة التجانس إلى صفة التغاير، بحيث تتحول عناصره المتشابهة إلى عناصر متباينة "، وهذه الصفة التفصيلية للحداثة نلحظها في كل من ميادين الثقافة بين دوائر القيم النظرية والقيم العملية والقيم الرمزية هذا من جهة، وفي ميدان المعرفة بين دوائر العلم والقانون والأخلاق والفنون هذا من جهة أخرى، وكذلك التفصيل والتفريق في كل الأدوار الاجتماعية ولكن التفصيل المقلد لم يقف عند هذا الحد من التفريق فحسب، بل اشتمل كذلك الفصل بين الأخلاق والسياسة والدين والعلم وبين الدين والعقل، بالرغم من أنها تقبل الجمع بين عناصرها المفصولة إذ يسهل علينا أن نجملها حتى لو غيرنا سياقها، لهذا بدلا من الاستغراق في البحث عن التفصيل، فمثلا مفهوم السياسة وفصلها عن الدين فإذا بحثنا في ذلك الفصل فيما بينهما وعملنا على البحث في عملية الوصل بينهما (الساسة والدين)، حتما سنصل إلى مفهوم موسع ومفهوم مختلف عما هو مصطلح عليه في الاصطلاح العربي، لهذا وجب التخلي عن فكرة التفصيل والتفريق ولحق فصل الوصل والاتصال من أجل تحقيق حداثة فعلية وخالية من أفات مظللة وظالمة.

اما المبدأ الاخير فهو مبدا الشمول الذي يستدعى تجاوز كل فكرة محدودة والتي تطالب بها الحداثة الغربية من محدودية المجال وخصائصه وخصوصية المجتمع ، حيث وجب رفض هذه الخصوصية والتي هي في الأصل فكرة عنصرية بحيث تدعو إلى فكرة التميز بين

الصفات الحضارية والثقافية لكل مجتمع وتؤكد على الشمولية المحدودة للحداثة من خلال شمولها لمجالات معينة في مجتمعات محدودة وهذا هو عين التوسع والتعميم المقلد لأن الحداثة ليست حكرا على مجال ومجتمع محددين، وهذا ما يؤكد عليه هذا المبدأ من خلال ركنيه وهما: ركن التوسع و ركن التعميم المبدع.

ان ركن التوسيع يقتضي تجاوز فكرة التوسع المقلد الذي وقعت فيه الحداثة الغربية، نتيجة التوسع المحدود في مجموعة من المجالات على حساب مجالات أخرى، لهذا فهي كلها حداثات سطحية وشكلية حتى ولو مست جزء من هذه المجالات وبالأخص المادية منها، لأنه من جراء هذا التوسع المقلد نجد أن الحداثة قد مست في غالب الأمر فقط الآلات، متجاوزة بذلك المجال الأخلاقي وهذا ما جعلنا نعاني من التأزمان والآفات الخلقية، لهذا وجب أن نعدل عن التوسع المقلد الذي أفرزته الحداثة الغربية ونبدأ التحديث أخذين من الأخلاق أولى المجالات ثم الأفكار، ثم تحديث المؤسسات ومن ثم يليها تحديث الآلات، لأن أفعال التحديث لا تنحصر في مجال أو مجالات بعينها، بل تنفذ إلى كل مجالات الحياة ومستويات السلوك، فتؤثر في مجالات الفكر والعلم والدين والأخلاق كما تؤثر في مجالات القانون والسياسة والاقتصاد، لذا تظل الحداثة الغربية مجرد "إمكان واحد لهذه الحداثة ، لأن لها – الحداثة- مظاهر تحققية متعددة، وليس الخلق الحداثي الغربي إلا واحدا منها" وفي ركن التعميم يجب تجاوز فكرة التعميم المقلد نحو التعميم المبدع، والذي يرفض فكرة التعميم المحدود لفكرة الحداثة الغرب الذي نظر الى هي الحداثة على انها واحدة حبيسة المجتمع الذي نشأت فيه، وفي هذا الركن يرفض طه عبد الرحمن فكرة التعميم المحدود وتجاوز الفروق التاريخية والحضارية بين الطرفين ومن ثم جعل الفعل الحداثي شامل ومعمم على كل المجتمعات، لأن الحداثة ليست لها قانون واحد في التطبيق، فإذا أمعنا النظر في التعميم المقلد للتطبيق الحداثي الغربي حتما سنجده يدعو إلى تجسيد فكرة الفردانية والتي هي في الأصل أيديولوجية فكرية عالمية تدعو إلى استبدال رتبة الإنسان برتبة الفرد حيث يصبح بعد ذلك بدل تحقيق صفات الكمال و الخير ، نجد أن هناك صفات الأنانية تترسخ وبالتالي سنجد أن الفرد هو مركز العالم، وهذا مجرد تقديس ظالم ومظلم وفيه نوع من المبالغة والزيغ ، لأنه من خلال الدعوة على التأكيد للفردانية سنجد في المقابل تقديس أعمى لا أساس له من الصحة وهذا يدفع بالحداثة إلى الانحلال والزوال على عكس روح الحداثة التي نجدها ترفض هذه القدسية وتمحوها.

II مفهوم العولمة ومازق الهوية :

لقد بحث العديد من المفكرين في ماهية العولمة فلا يمكن التعامل معها الا ن خلال تحديد ماهيتها ، حيث ذهب مُحَمَّد عابد الجابري الى تعريف العولمة بانها : "تنازل الدولة الوطنية أو حملها على التنازل، عن حقوق لها لفائدة" العالم "، أعني المتحكمين فيه، يجعل عدم قبول لفظة " الخصوصية" غير مبرر ولا مفهوم ويعرفها ايضا طه عبد الرحمن بانها " تعقيل العالم بما يجعله يتحول الى مجال واحد من العلاقات بين المجتمعات و الافراد عن طريق تحقيق سيطرات ثلاث: سيطرة الاقتصاد في حقل التنمية، وسيطرة التقنية في حقل العلم و سيطرة الشبكة في حقل الاتصال "، فالعولمة عنده ظاهرة تجسد رغبة الانسان في فرض سيطرته على الوجود و توحيد العلاقات الانسانية في كافة المجالات من اجل تكوين مجتمع عالمي واحد .

وبهذا فان العولمة في نظر طه عبد الرحمن تتجلى ي ثلاث انواع من السيطرة اولها سيطرة الاقتصاد في مجال التنمية من خلال الاعتماد على النظام الرأسمالي كنظام موجه للاقتصاد يتماشى مع طبيعة الفرد يستطيع في ظله بلوغ اهدافه و تحقيق رغباته حيث لا تتعارض فيه مصلحة الرد مع مصلحة الجماعة فكل ربح يحققه الفرد ينعكس ايجابا على المجتمع وكلما " تزايد غنى الاغنياء يلغي على التدريج فقر الفقراء لما ينطوي عليه هذا التزايد من اسباب الاستثمار والتشغيل"لكن هو في حقيقة الامر يزيد في ثروة المستفيد، وخدمة للصالح العام ظهرت شركات استثمارية ذات طابع عالمي اصبحت لها سلطة تمكنها من الاستثمار في كل بلدان العالم ومن ثمة تكون

العلاقة التي تجمعها مع هذه البلدان يحكمها مبدا المنفعة والمصلحة المادية وبالتالي الاقتصاد في ظل العولمة يحكمه التنافس وتحقيق الربح بكل الوسائل حتى وان كانت تتعارض مع القانون والاخلاق وبناءا على هذا فانه"لا مكان في العلاقات الكونية الناتجة عن التعقيل الاقتصادي العولمي للاعتبارات المعنوية "ولهذا نجد طه عبد الرحمن يدعو الى استبدال مبدا سيطرة الاقتصاد في مجال التنمية بمبدأ التزكية الذي يهتم بتنمية انسانية الانسان على الصعيدين المادي والمعنوي في جو اخلاقي هدفه تحقيق صلاح الانسان بعيدا عن المنافع الخاصة التي تكرسها العولمة، ان مبدا التزكية التي يدعو اليه طه عبد الرحمن يعمل على تنمية الموارد من جهة وتنمية الاخلاق من جهة اخرى على عكس العولمة التي تهتم بالجانب المادي وتهمل الجانب الاخلاقي فلابد من الجمع بين الاخلاق والتنمية من اجل تحقيق مجتمع سوي لا يقدس الاقتصاد وانما يهتم بصلاح الانسان.

اما النوع الثاني من السيطرة المتمثل في سيطرة التقنية في مجال العلم فان طه عبد الرحمن يرى بان تطبيق ما توصل اليه العلم في الجانب النظر يقد انتج لنا ما يعرف اليوم بالتقنية التي قلبت بدورها العلاقة بينها وبين العلم فبعدما كان العلم هو الذي ينتج التقنية ويوجهها اصبحت التقنية هي التي تتحكم في العلم وترسم مساره بدقة ومن ثمة فرضت التقنية سيطرتها على العلم فاصبح خادما مطيعا لها وهذا انعكس سلبا على العلاقات الكونية التي تجمع بين البشر التي اصبحت تخضع للتجريب والتحسيب فهي علاقات بين اجراءات تحكمها الالة وبالتالي تقضي على المقاصد الاخلاقية التي تتميز بها الاعمال التي تراعي مقتضى التحكم ومقتضى الحكمة على عكس التقنية التي يسودها طابع التحكم وتشيؤ العلاقات البشرية ومن ثم تكون اخلاقهم القائمين عليها "اخلاق الواقعين في تقديس للعلم والتقنية اشبه بتقديس العلم الالهي الذي لا يحد"

فأما النوع الثالث من السيطرة فيتمثل في سيطرة الشبكة في مجال الاتصال حيث اصبح التواصل في العالم يقوم على شبكة الانترنت المرتبطة بالتقنية فأخرجت الانسان من النطاق الضيق والمجال المحدود نحو الكونية اين اصبحت المعلومات تتناقل بصورة سريعة و بشكل مذهل والاعتماد على هذا النوع من الاتصال ادى بالإنسان الى فقدان اخلاقيات التواصل حيث يقول طه عبد الرحمن " اهل العولمة في علاقاتهم الاتصالية يشتغلون بتناقل المعلومات ولا يبالون بتجاوب الذوات، فأخلاقهم اخلاق الواقعين في تقديس المعلومات بما يشبه تقديس الكلام الالهي" بالرغم من المبادئ التي تقوم عليها العولمة الا ان طه عبد الرحمن يدعو الى عدم التوجس والخوف من العولمة لأنها ليست ظاهرة حضارية جديدة افرزتها الحداثة بل هي كانت موجودة في كل الحضارات عبر التاريخ بل كانت محركة للتاريخ و صانعة له من خلال اتخاذها "اشكالا متعددة: فقد يطغى فيها العامل العقدي او العامل الثقافي او العامل التجاري او العامل السياسي او العامل الاقتصادي او العامل الاعلامي، فيستتبع العوامل الباقية او تزدوج فيها هذه العوامل بعضها ببعض " والعامل الذي ميز الحضارة المعاصرة وجعلها تدخل في العولمة هو الجانب العلمي والتكنولوجي والحرية المفرطة والتنافس من اجل تحقيق الربح و الانانية الناتجة عن حب المصلحة الذاتية والاهتمام بالجانب المادي بدلا من الجانب المعنوي فالعولمة اصبحت قدر محتوم على شعوب العالم عامة والمجتمع الاسلامي خاصة، ومع ذلك فان العولمة لا يمكنها ان تحول الانسان الى الة ذلك لان الانسان اية يبقى له سلطان على التعولم " لأنه يقدر على ان ياتي بقيم نافعة تواجه القيم الضارة التي قد يفرزها هذا التعولم " والعولمة ايضا تحمل في ذاتها اسباب فنائها لان " التعولم قد يتعثر في الامساك بزمام امره، فتنقلب عليه خططه ومقاصده،لان الاصل في التعولم فقد الامن في صنعه"فمادام لا يمكن تجنب التعولم خاصة بعد ان اندمج الانسان فيه من حيث لا يدري وبعد ان استفاق على اثر ازمة تكاد تعصف بهوية فكان لا سبيل للتصدي للعولمة ولإعادة الهوية للإنسان الا من خلال العودة الى الدين الاسلامي، لان الاسلام هو وحده القادر على قهر العولمة وضبط مسارها التعقيلي بالأخلاق الاسلامية وهنا تبرز فعالية الخطاب الديني الاسلامي كموجه للفرد المسلم في العصر التقني والحامل لهوية هذا الفرد وهنا نتساءل كيف يتصدى الخطاب الديني للعولمة ؟ وكيف يساهم في الحفاظ على هوية المسلم في ظل هذا التعولم ؟

يتصدى الخطاب الديني للعولمة من خلال درء آفاتها غير الاخلاقية الناتجة عنها لان العولمة انتجت قيم ارادت ان تجعل منها دستور اخلاقي يعمل به العالم بأكمله اي خلق نظام اخلاقي واحد تندرج تحته كل العلاقات الاجتماعية، لكن هذا النظام اخلاقي لا يتماشى مع انسانية الانسان مدام يمجد المادة على حساب الجانب الروحي والمادي وهو الامر الذي جعل طه عبد الرحمن يستعين او يوظف الدين الاسلامي من اجل بناء نظام اخلاقي يتماشى وروح العولمة حيث تتأسس هذه الروح على جملة من المبادئ منها مبدا ابتغاء الفضل من اجل درء افات المظهر الاقتصادي ومعناه ان"التنمية الصالحة لا تكون الا بتكامل المقوم الاقتصادي مع المقومات الاخرى للتنمية، مع دوام اتصاله بالأفق الروحي ومن خلال هذا يتمكن الدين من تجاوز الاهتمام بالمنافع المادية للتنمية والاتجاه نحو مبدا التزكية الذي يجعل التجارة والاعمال الاقتصادية تستند على الاخلاق لان الغاية من ذلك هي ابتغاء الفضل والمقصود منه تحقيق الفضيلة سواء كانت مادية او معنوية استنادا الى قوله تعالى ﴿ ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم ﴾ وبهذا فان التنمية لا تكون نافعة و مشروعة الا اذا سعت الى تحقيق مقاصد خلقية وروحية.

اما في مبدا الاعتبار لدرء افات التقنية في مجال العلم وفي هذه الحالة يذهب طه عبد الرحمن الى القول بان" العلم النافع لا يكون الا بالنظر في حكمة الشيء قبل سببه وفي مآله قبل حاله " فاذا ارتبط العلم بالحكمة كانت نتائجه مفيدة واخلاقية و صالحة اما اذا ارتبط بالجانب الاجرائي فانه يكون مضر وذو نتائج وخيمة وبالتالي فالعلم يكون اعتباري اذا كان هناك توافق بين السبب والحكمة التي ينتهي اليها ومن ثمة يمكن الأخذ به اما اذا لم يكن هناك توافق فلا يجب الاعتماد عليه لأنه يتنافى مع القيم والاخلاق وبالتالي لا يتحول العلم الى " مجرد جملة امكانات تقنية قد تنفع او تضر كما هو الشأن في النظر الاجرائي لكي تصبح امكانات عملية تنفع ولا ضر" كما انه يجب على الانسان الاعتباري الوقوف على مال الفعل لا على حاله لأنه يتم تقييم العلم على اساس المال لا على اساس الحال فاذا كانت مالاته اخلاقية و نافعة يكون من الصواب الاعتماد عليه وبالتالي لا يجب ان نندفع خلف التطبيقات دون الاستشراف بنتائجها .

وفي الاخير نجد مبدا التعارف لدرء آفات الشبكة في مجال الاتصال حيث يرتقي هذا المبدأ بفعل الدين بالمعلومات من اعتبارها مجرد منتوجات شبكية الى مرتبة المعروفات التي هي نتيجة اخلاقية وبذلك نصل الى ان " التواصل السليم لا يكون الا بكلام طيب بين متكلمين بعضهم اكرم من بعض " ان التعارف عند طه عبد الرحمن يقوم بمعنى يختلف عن معنى الاتصال فالتعارف يعود في اصله الى المعروف ومعناه الخير وهو ما نجده في قوله تعالى﴿ يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم﴾ وبالتالي اقامة العلاقات الانسانية على اساس من التسامح والتعاون والاحترام، اما الاتصال فان يعتمد على الحوار في العلاقات الانسانية بالاعتماد على وسائل الاتصال البعيدة عن كل قيمة خلقية .

وعليه نجد ان طه عبد الرحمن يحمل المسلمين مسؤولية كبيرة لان لهم دين كفيل بالتصدي لكل المخاطر التي جاءت بها العولمة ومن ثمة حماية الانسانية والمحافظة على انسانيتها داخل هذا الفضاء المتعولم وذلك بالعودة الى الاخلاق الاسلامية التي يمكن من خلالها التأسيس لروح حداثة جديدة .

ثالثا: التراث و الهوية :

يعرف طه عبد الرحمن التراث بانه:" جملة المضامين والوسائل الخطابية والسلوكية التي تحدد الوجود الانتاجي للمسلم العربي في اخذه بمجموعة مخصوصة من القيم القومية والانسانية، حية كانت ام ميتة ، والتراث عنده يشتمل على القرآن والسنة وكذلك اجتهادات المسلمين وهذه العناصر الثلاث للتراث تشكل مجتمعة هوية الفرد العربي، فلا هوية بلا تراث فهي تنمو في ظل التراث وتتطور بناءا عليه ان أزمة الهوية التي اخذت في الظهور منذ القرن التاسع عشر مردها الى الابتعاد والانفصال عن التراث بحجة ان الحضارة الاوربية تطورت من خلال انفصالها عن تراثها لكن هذا غير صحيح فالغرب عاد الى تراثه اليوناني ولم ينفصل عنه، فدعوة المسلمين الى الانفصال عن تراثهم

اوقعهم في مازق الهوية ذلك لأنه "يمده بالهوية فهذا الاتصال يوفر للفرد البعد الثقافي الذي يجعله يحدد ذاته، مدركا تميزه عن باقي افراد الانسانية، فالتراث وسيلة من وسائل تثبيت الهوية "

وهذه الفكرة نجد مثيلتها عند مالك بن نبي الذي اعتبر التراث احد مقومات التي تقوم عليها هوية الفرد وكذلك ارجع ازمة الهوية الى المثقفين الذين كانوا يسعون الى النهوض بالمجتمع العربي ففقدوا اثر هذا السعي انفسهم وهويتهم حيث يقول:"هنالك الكثير بين المثقفين المسلمين الذين يفتنون بالأشياء الجديدة، وبالتالي يسحرون بمنطق الفعالية، ولا يميزون بين حدود توافقها مع مهام مجتمع يريد ان ينهض دون ان يفقد هويته" وعليه فان العديد من المثقفين تأثروا بالحداثة الغربية وبتقدم الغرب فاتبعوا سبلهم دون اي يتنبهوا الى ان المجتمع الاسلامي يختلف عن المجتمع الغربي فكانت النتيجة الولوج في ازمة هوية.

يرى طه عبد الرحمن ان التراث هو اهم عامل محدد للهوية فاذا اراد الانسان العربي ان يتعرف على ذاته فيجب عليه العودة الى تراثه وهو ما يؤكد عليه بقوله " فمادام المسلم العربي يحمل في صدره هم الهوية او هم الذات فلا بد من ان يرجع الى تراثه، طالبا فيه ما يقيم او يقوي به بنية هذه الهوية ويذهب ايضا مُحَّد عمارة في كتابه مخاطر العولمة على الهوية الثقافية الى القول بان الهوية تعبر عن حقيقة الفرد العربي المسلم وتفصح عن وجوده وانتمائه فلا يمكن ان نعزل الفرد عن هويته ولا يمكن ان نصنع الفرد خارج عن هويته فهي(الهوية) "كالبصمة بالنسبة للإنسان يتميز بها عن غيره وتتجدد فاعليتها، ويتجلى وجهها كلما ازيلت من فوقها طوارئ الطمس والحجب، دون ان تخلي مكانها ومكانتها لغيرها من البصمات" وبالتالي فان هوية الفرد العربي عند مُحَّد عمارة هي الاسلام الذي ينتسب اليه المسلم ومنه كون ثقافته وعاداته وتقاليده وكل تراثه الذي يميزه عن غيره.

ان تساؤل العرب عن سبب تخلفهم وتقدم الغرب عنهم قادهم الى النظر الى التراث على انه عائق امام تطورهم فمنهم من ذهب الى ضرورة الانفصال عنه ومنهم من قال بتجديده فوقع كلا الطرفين في التقليد ولم يتمكن اي طرف من تحقيق هذا الهدف بل هذا حاد بهم وجعلهم يخرجون عن الامر المطلوب، ويرجع طه عبد الرحمن انزلاقات الهوية الى القراءات الحداثية للتراث التي انتهجت نهج الحداثة الغربية في المبادئ والاليات، وايضا للقراءات التجزيئية للتراث التي اتسم بها فكر مُحَّد عابد الجابري من خلال تقسيم التراث الى اجزاء ووحدات، فطه عبد الرحمن بالرغم من انه يدعو الى التجديد الا انه لا يدعو الى الانفصال عن التراث وذلك لا يكون الا من خلال مرحلتين الاولى هي نقد النظر التجزيئي وفي هذه المرحلة يقوم طه عبد بنقد الكيفيات التي قرا بها المفكرين الاسلاميين التراث فتوصل الى انهم اهملوا العديد من الجوانب حيث ان نظرهم اقتصر على المضامين التي هي عبارة عن مجموعة من العناصر الخطابية المركبة دلاليا واهملوا الاهتمام بالوسائل التي تعد اكثر اهمية من المضامين لان تحديد الوسائل بدقة يقود الى انتاج معارف دقيقة وهو ما اوقعهم في ما يسميه طه عبد الرحمن بالقصور في فقه الاليات حيث يقول"فاذا كانت الوسيلة هي طريق وجود المضمون، او قل هي سببه بالمعنى الاعم، فلكي يحصل المرء تمام العلم بالمضمون، او باصطلاحنا التحقق منه، فلا بد له من تمام العلم بالوسيلة او باصطلاحنا التمكن منه، فيجب اذن تقديمه على غيره والا اتسم المضمون المحصل بالضحالة اوبالعطالة"

من بين ايضا الاخطاء التي وقع فيها المجددون اعتمادهم على وسائل منقولة وتطبيقها على النص التراثي الاسلامي دون نظر وتمحيص اي ان هذه الوسائل المنقولة هي في الاساس ليست اصيلة وانما هي مناهج جاءوا بها من الحضارة الغربية ومع ذلك فان طه عبد الرحمن لا يرفض فكرة استعارة الاليات ولكن يرفض الاعتماد عليها كما هي ويضع لهذا شروط اولها التمكن من اسباب هذه الاليات في مصادرها من خلال نقدها وتبيان امكانية الاعتماد عليها وقدرتها التحليلية من اجل الوصول الى معارف دقيقة وثانيها هو ضبط طرق تنزيل هذه الاسباب على النص التراثي اطلاقا من الكشف عن العلاقة الموجودة بين هذه الوسيلة والمضمون الذي سيقوم بدراسته مع مراجعة مقتضيات هذا الانزال في كل طور من الاطوار وفي الاخير يقوم بتفحص النتائج من حيث تطابقها مع الوسائل المستخدمة الا ان الاعتماد على مثل هذه الاليات دفع طه عبد الرحمن الى القول " مع العلم ان الاسباب المنهجية قد تصح، لكنها تظل غير معتبرة، لكونها

لا تثمر الا القليل من النتائج" اما في ما يخص التلويح بالعقلانية فيذهب طه عبد الرحمن الى القول ان الحداثيون يدعون العقلانية و انهم عقلانيون لكنهم في الواقع يجهلون العقلانية و يتوهمونها فقط و ذلك اما " لان اصحابها لا قدرة لهم عل تبين الحدود بين ما هو عقلاني وبين ما هو غير عقلاني لقلة زادهم من اسباب المنطق، واما لانهم يحملون على العقلانية افكارا واحكاما طواها الزمان، ولا عمل بها الا في عقولهم " اما الدعوة الى التجزيئية فإنها كانت تدور حوال المضامين حيث يقومون بتقسيم التراث الاسلامي الى اقسام متباينة يتم خلالها الاحتفاظ بالتي هي اكثر فائدة وذات منهجية فعالة وما عدا ذلك يتم حذفه حيث يقول"ولما كانت هذه الابحاث تنتهي كلها الى تقسيم التراث اقساما تقوم بالمفاضلة بينها فقد جعلنا لهذه الصفة الجامعة بينها اسما خاصا هو النظرة التجزيئية اوالتفاضلية للتراث. " اما المرحلة الثانية عند طه عبد الرحمن فتتمثل في النظر التكاملي الذي يعد بمثابة انقلاب على المرحلة الاولى المتمثلة في النظرة التجزيئية لأنه يستند على مبادئ وطرق تختلف عن المبادئ التي انبنت عليها النظرة التجزيئية فاذا كانت المرحلة الاولى تعطي الاهمية للمضامين على حساب الوسائل فان المرحلة الثانية تقلب هذه الاهمية وتعطي الاولوية للأليات، واستبدل المناهج المنقولة بمناهج مأصولة مأخوذة من التراث، واذا كانت ايضا النظرة التجزيئية تقوم على العقلانية المجردة فان النظرة التكاملية تقوم على العقلانية العملية اي انه لا فائدة من دراسة التراث دون العمل به حيث يقول طه عبد الرحمن " فأبينا الا التمسك بهذه المعايير العملية، حتى نبين كيف ان الاعتبار العملي يعين على فهم وفتح افاق المضامين التراثية "، كما ان التكامل عند طه عبد الرحمن يقوم على الجمع بين اجزاء التراث والغاء التفاضلية بين اقسامه بحيث يصبح بعضها يكمل البعض الاخر وبالتالي من خلال هذه النظرة التكاملية نصل الى تجديد التراث واعطاء نظرة جديدة له.

IV- الخلاصة:

من خلال ما تقدم نعتبر أن طه عبد الرحمن حاول أن يقدم من خلال مشروعه تأسيس فلسفة إسلامية عربية تحقق الكونية العالمية، وتحرر الإنسان المعاصر من أزمة الحداثة والعولمة، ويكون بذلك رفض مقولة " الأمر الواقع" وقد دعى في الوقت نفسه الى الرجوع الى الينابيع الحقيقية للدين الإسلامي، وأنه يمكن ترسيم معالم فلسفة إسلامية في مواجهة الحضارة الغربية المبنية على القوة والغطرسة في جميع المجالات سواء كانت سياسية أو إقتصادية وحتى ثقافية، وأكد في الوقت نفسه على الجق في الإختلاف الفلسفي، ودعى الى الحوار، وهو من كل هذا يؤكد على روح الحداثة الحقيقة لا الإمتثال لمظاهرها، وبالتالي يكون مشروعه الفلسفي هادفًا الى بناء فكر اسلامي متين قادر على التصدي للتحديات الفكرية التي تواجهه، فالتجربة الصوفية التي تعتمد على العقل المؤيد فهو الهدف الأسمى الذي يصبو اليه، فقد قدم من خلال مشروع فلسفة ذات طابع علمي وعملي ويكون بذلك فتح باب التجديد في الفكر الديني وإنتاجيته.

- الإحالات والمراجع:

- أحمد مختار عمر (2008)، **معجم الصواب اللغوي دليل المثقف العربي**. (المجلد الأول، ط1)، القاهرة: عالم الكتب للنشر والتوزيع.
- بيار أنصار. ترجمة: نخلة فريفر(1992)، **العلوم الاجتماعية المعاصرة**. المركز الثقافي العربي. المغرب: الدار البيضاء.
- بيار بورديو وجان، كلود باسرون. ترجمة: ماهر تريمش(2007)، **إعادة الإنتاج في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم**، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
- بيير بورديو، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي(2007)، **الرمز والسلطة**. (ط3). المغرب: دار توبقال للنشر،
- جان فرنسوا دورتيه. ترجمة: جورج كتورة(2009)، **معجم العلوم الإنسانية**. بيروت: مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- – جليلة المليح الواكدي، مفهوم الهوية، مساراته النظرية و التاريخية في الفلسفة، في الانثروبولوجيا وفي علم الاجتماع، مركز النشر الجامعي، تونس، 2010، ص 4 .
- – عبد الحميد أحمد ابو سليمان، أزمة العقل المسلم، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع،ط2003،،1،ص 29.
- – طه عبد الرحمان، حوارات من أجل المستقبل ، منشورات الزمن، دار الهدى للطباعة والنشر، المغرب، ط1، 2000، ص 87.
- – طه عبد الرحمن ، سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، ط1، 2000 ، ص 106
- – طه عبد الرحمن ، الحوار أفقا للفكر، الشبكة العربية للأبحاث و النشر ، بيروت ، ط 1، 2013 ، ص ص98 ، 99 .

– خالد حاجي ، من مضايق الحداثة إلى فضاء الإبداع الإسلامي العربي ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ،، ط1، 2005 ، ص 41.
– طه عبد الرحمن ، روح الحداثة المدخل الى تاسيس الحداثة الاسلامية ، المركز الثقافي الغربي،الدار البيضاء ،ط1، 2006 ، ص 26.Alain Rey)2003 (le ,
. France. ouvrages édités par le dictionnaire le robert: robert aujourd'hui. paris